التلميذ ضامن القِيَم الروحيّة
مداخلة الأب سليم دكّاش اليسوعيّ
في مؤتمر الأمانة العامّة للمدارس الكاثوليكيّة
في الرابع من أيلول من السنة ٢٠١٢
(مدرّج مدرسة الراهبات الأنطونيّات – غزير)

إذا المدرسة المسيحيّة لم تربِّ على القِيَم، تفقد جزءًا من رسالتها وإذا لم تربِّ على القِيَم الروحيّة، تكون فقدت هويّتها.

على المدرسة أنّ تؤمّن قيمة مضافة عن طريق التنشئة على منظومة قِيَم الحقّ والخير والكمال أوّلاً وكذلك التنشئة على القِيَم الروحيّة.

التلميذ ضامن القِيَم الروحيّة هو الموضوع المكلّف به وهو موضوع شائك وموضوع أساسيّ في كيان المؤسّسة التربويّة المسيحيّة، لا بل أنّه عنصر مكوّن لهويّة المدرسة المسيحيّة ولرسالتها. مداخلتي هي في ثلاثة أقسام :

- أبدأ ببعض الملاحظات والتعاريف؛
- ثمّ أنتقل إلى العوائق الأساسيّة أمام القِيَم الروحيّة؛
- وثالثًا أتوقّف عند التربية على القِيَم الروحيّة بحيث يصبح التلميذ ضامنًا لهذه القِيَم؛
- وأنهي بخاتمة حول مستقبل الحياة الروحيّة في مدارسنا آخذًا بعين الاعتبار التعدّديّة اللبنانيّة.

أ. ملاحظات وتعاريف

– الملاحظة الأُولى أو الإشكاليّة :

كنت أسأل نفسي وأسأل الآخرين من المسؤولين الروحيّين ومن الأساتذة والمربّين الروحيّين في المدرسة التي أمضيت فيها أكثر من عشرين سنة، حول جدوى تربيتنا الروحيّة :

لماذا ينضج تلامذتنا علميًّا أدبيًّا وثقافيًّا وحتّى في المعرفة الجنسيّة ولا ينضجون على المستوى نفسه في حياتهم الروحيّة بالرغم من أنّنا نهيئ لهم الأفضل من المربّين والمناهج والجوّ المدرسيّ الخ... على مستوى التعليم المسيحيّ وعلى مستوى الأنشطة الروحيّة؟

- **الملاحظة الثانية :**

مقولة التلميذ ضامن القِيَم الروحيّة هي نتيجة ونتيجة مسيرة تربويّة طويلة وعميقة الجذور. لا شكّ أنّها تبدأ في إطار العائلة التي لها الدَوْر القويّ في التربية على القِيَم بشكل عامّ وعلى القِيَم الروحيّة بشكل خاصّ وبصورة مستمرّة. وهذه المسيرة لا تتوقّف عند دخول الولد إلى المدرسة، حيث أنّ المدرسة ستقوم برسالتها التربويّة على مستواها أيّ في التعميق وتثمير وإنضاج هذه القِيَم على مستوى الفرد في إطار جماعة من التلامذة تحيا القِيَم الروحيّة.

- **الملاحظة الثالثة :**

شرعاتنا المدرسيّة في الشبكات الكاثوليكيّة تتحدّث عن ضرورة التنشئة الروحيّة والكثير منها يتكلّم مباشرةً عن القِيَم وبشكل محدَّد تتناول موضوع القِيَم الروحيّة.

ففي أثناء الدراسة المعمّقة التي قمت بها في إطار البحث حول الأهداف والغايات والقِيَم في منظومتَي المؤسّسات التربويّة اللبنانيّة، المسيحيّة والإسلاميّة، وجدت أنّ غالبيّة الشرعات المدرسيّة الكاثوليكيّة وعلى رأسها شرعة الأمانة العامّة تتحدّث عن التنشئة الروحيّة وعلى القِيَم الروحيّة. فهذا الموضوع ليس غريبًا إذًا عن واقع المدرسة الكاثوليكيّة وكنّا قد تناولناه في مؤتمر سابق، وأستسيغ القول إنّ موضوع القِيَم الروحيّة مدرج كذلك في الشرعات المدرسيّة الإسلاميّة وفي الشرعة التربويّة الرسميّة التي صدرت في سنة ١٩٩٧، في حين أنّ المدارس العلمانيّة لا تتطرّق إلى هذا الموضوع. إذن لدينا أدبيّات موجودة بين أيدينا ولا نتحدّث عنه إطلاقًا من فراغ أو حتّى من الهامش.

على سبيل المثال اخترت ثلاث شرعات فيها ذكر للقِيَم الروحيّة.

- الشرعة الأُولى حدّدت القِيَم الروحيّة كالتالي:

التربية على معنى وجود الله في حياة الشخص والانتماء إلى الكنيسة والتربية على الإيمان بالله بحسب الروح الكنسيّة وفي مجتمع متعدّد الأديان.

- في الشرعة الثانية نجد القيم التالية:

التربية على النموّ في الإيمان، تربية التلميذ ليكون فاعلاً من أجل العدالة، ليعيش فرح الإيمان، وليكافح كلّ نوع من أنواع الاستعباد والشرّ ليستطيع التمييز الروحيّ، ليكون عاملاً من أجل نموّ الانسان وكرامته، من أجل أن يكون شريكًا للمسيحيّين وغير المسيحيّين، ليكتسب الفضائل الثلاث.

- وفي الشرعة الثالثة لمدرسة مسيحيّة غير كاثوليكيّة :

نقرأ أنّ على مناخ المعهد أن يكون روحيًّا بالمعنى الإنجيليّ غير طائفيّ أو مذهبيّ، يدعو إلى وحدة المجتمع وإلى الإيمان بالكائن الساميّ، وأن يعلم أنّ كلمة الله هي الأبديّة والباقيّة.

- **الملاحظة الرابعة** :

ما هي القِيَم الروحيّة أو منظومة القِيَم الروحيّة التي لا بدّ من أمداد التلميذ بها؟

لديّ ثلاث أبعاد في الإجابة.

الأوّل من جهة الفلسفة، القِيَم الروحيّة هي تلك القِيَم ، مهما كانت الانتماءات الوطنيّة أو الدينيّة، التي ترفعنا عاليًا فوق أنانيّاتنا وتحرّرنا منها، وهي التي تجعلنا نرى كم أنّ الرتابة في حياتنا اليوميّة تمنعنا من أن نكون أحرارًا ناضجين خلاّقين محبّين. هناك ثلاث قِيَم يركّز عليهما الفكر العلمانيّ المعاصر ويعطيهما بعدًا روحيًّا : أوّلاً الانسجام الداخليّ والخارجيّ، الإرادة الطيّبة، والحريّة في الاختيار من ضمن التمييز الروحيّ. الضمير البشريّ الذي هو منفتح على هذه القِيَم يتغذّى منها مقدّمة للعمل بموجبها.

البعد الثاني : نحن نعيش في مجتمع متعدّد الأديان والمذاهب ومدارسنا الكاثوليكيّة في غالبيّتها تعيش هذه التعدّديّة، وهي إذا أرادت الاستمرار مستقبلاً وإذا أرادت أن تستمرّ في رسالتها عليها أن تقبل هذه التعدّدية ولكن عليها أن تعرف كيف تستوعبها. في هذا المجال، لا نستطيع أن

نضع جانبًا ما يحمله الدين الإسلاميّ من قِيَم روحيّة موجودة أكثر فأكثر في العائلة الإسلاميّة وفي المجتمع الإسلاميّ. أكتفي بذكر هذه القِيَم كما وردت في شرعات المدارس أو شبكات المدارس الإسلاميّة: الربوبيّة يعني الاعتراف أنّ لا ربّ إلاّ الله، القدسيّة، مثلاً قدسيّة الحياة، أهميّة الجماعة، مركزيّة الصلاة، مرجعيّة القرآن والشريعة، محبّة العلم ...

البعد الثالث يتعلّق بالقِيَم الروحيّة المسيحيّة وعلى وجه التحديد بالقِيَم كما وردت في الشرعات التربويّة الكاثوليكيّة فأركّز استنادًا إليها على ثماني قيَم أساسيّة هي التالية :

١) الانفتاح على ما هو متساميّ ومتعالي، وعلى الكائن المتسامي؛

٢) الإيمان بيسوع المسيح كينبوع للحياة الأبديّة والفرح والسلام؛

٣) العيش على رجاء المصالحة مع الله والذات والآخر؛

٤) السعي إلى معنى الحياة بالعلاقة الشخصيّة بالله في الصلاة والتأمّل؛

٥) الالتزام بالشراكة الأخويّة وبالمحبّة؛

٦) مواجهة الخطيئة والعبوديّة والشرّ وإعلاء شأن الوصايا وشريعة الله؛

٧) إعطاء معنى للألم والمحنة والعذاب ...

٨) والإيمان بنضوج الإنسان الروحيّ والعاطفيّ والعلميّ عبر التربية والتمييز الروحيّ.

هذه القِيَم الروحيّة منها ما هو مشترك مع الآخرين المختلفين، ومنها ما هو خاصّ، ليست مادّة للاكتساب وللمعرفة العقليّة فحسب، بل هي مجالات للعيش. إنّها مادّة وقِيَم لا تدعو فقط لأن نحترمها وحسب، بل هي نوع من النداء، من التحدّي، من الوعد تدعوني إلى الخروج من ذاتي، من سجن الذات للقاء ذاتي الحقّ وللقاء الآخر أكان قريبًا منّي أو بعيدًا عنّي.

القِيَم وخصوصًا القيم الروحيّة تدفع إلى التسامي، إلى تجاوز المحدود، إذا أخذنا مثلاً قيمة المحبّة، فذلك يضعنا على مستوى الأمل لا بل الرجاء أن هناك واقعًا جديدًا يمكن أن نتصوّره أو بناءَه يتجاوز حالة الحقْد والحسد والظلم بين الناس.

القِيَم بوجه عامّ تستند إلى علامات، نقول إلى معالم (repères) مثلاً قيمة ما هو مقدّس كالحياة البشريّة تستند بالنسبة للمسيحيّ إلى علامة أنّ الله تجسّد فينا وأخذ بشريّتنا ونحن خليقته. والمعالم هي حدود وهي خطّ أحمر. مثلاً قيمة الصدق تفرض خطًّا أحمر هي عدم الكذب وعدم الغشّ. قيمة الأمانة تفترض خطًّا أحمر يقضي بعدم خيانة الصديق. ووراء هذا كلّه هناك حقيقة أنّ للتربية وخصوصًا المدرسيّة منها دَوْر أساسيّ في التنشئة عليها بأنّ يُدرك التلميذ أنّ مرجعيّة القِيَم الروحيّة هو الله المتساميّ. والمربّي في دَوْر التنشئة على القِيَم الروحيّة يلعب دَوْر العارف لأنّه تعمّق في الموضوع، ودَوْر الشاهد لأنّه اختبر حضور ذاك المتساميّ في حياته.

الشبيبة هي في عطش إلى القيم الروحيّة لكن على المربّي أن يعرف كيف يحدِّث عنها، كيف يدخلها في سنّة الحياة وكيف يجعلها جزءًا لا يتجزّأ من المسيرة التربويّة، لا جزءًا منفصلاً عن الحياة اليوميّة.

ب. العوائق الأساسيّة أمام التربية على القيم الروحيّة :

يصطدم التلميذ اليوم بثلاثة عوائق أساسيّة تحدّ من رغبته في التشبّع من القِيَم الروحيّة كما أسلفنا وشرحناها، وهذه العوائق تبيّن أنّ هناك انقلابًا في سلّم القِيَم. فما كنّا نعتبره في صَدْر اللائحة، سقط إلى وسطها أو إلى أسفل، وما كنّا نعتبره تحت السيطرة يتربّع على قمّة اللائحة. وإنّي أختصر هذه العوائق بثلاثة عوالم تُدخل التلميذ في أطرها وتكبّله بعض الشيء وتؤخّر نضوجه الفكريّ. وأضيف أنّ هذه العوائق ليست متعارضة بشخصيّة المتربّي بقدر ما هي متّصلة بواقع التربية وبضغط المجتمع فنقول، إنّ هذه العوائق هي بنيويّة وليست هامشيّة أو عارضة.

١) عالم النجاح :

نقول أنّ على التلميذ وينبغي لنا أيضًا أن نحترم القِيَم وأن نستوعبها أن نهضمها وخصوصًا القِيَم الروحيّة. الواقع أنّ القِيَم الروحيّة تصطدم أوّلاً بذهنيّة النجاح الطاغيّة.

نقول أنّ هنالك ضياع عند التلامذة للمعالم (perte de repères) لأنّنا نشدّد كثيرًا على وظيفة للدراسة ولم نعد ننتبه إلى غاية الدراسة ومعناها. وظيفة الدراسة وما ستحقّقه الدراسة للتلميذ

أيّ دراسة المنهج بكامله أصبحت مركزيّة. وظيفة الدراسة هي تأمين المهنة الهامّة التي سنصل إليها بفضل الجهد المتواصل والقيمة الاجتماعيّة التي سيكتسبها الولد. لدينا في مدارسنا مراكز للتوجيه المهنيّ والجامعيّ توجّه التلميذ وتساعده على اختيار ما هو مناسب لإمكانيّاته الفكريّة ليكون ناجحًا في حياته، والمعركة على أشدّها مع الأهل الذين يريدون أن ينجح ولدهم في الحسابات والعلوم الوضعية لأنّ من يكتسبها ويبرع فيها ستفتح أمامه أبواب النجاح المهنيّ والاجتماعيّ وبالتالي أهميّة مركزه الاجتماعيّ. إذن ما تتّسم به تربيتنا هو التشديد على النجاح الفرديّ، وبالتالي نحن مثل مار بولس نعمل ما لا نريد أيّ أنّنا من حيث المبدأ لا نريد أنّ نوجّه التلميذ نحو بناء شخصيّته كفرد يحقّق المكاسب ولربّما وقع في محظور الارتداد على الذات وعلى الأنانيّة. فكيف نربّي على الحياة الروحيّة التي تدعو إلى الشركة وإلى المقاسمة وبناء الجماعة في حين أنّ تربيتنا تشدّد على النجاح الفرديّ وعلى المنافسة البشعة أحيانًا عبر الركض وراء العلامات ووراء المواقع المتقدّمة وعلى المنافسة وعلى تمجيد الأوائل. فتحت تأثير وسائل الإعلام، أصبح المثال الأعلى للتلميذ هو الفنّان والنجم الرياضي والفنّ أصبح استعراضًا خارجيًّا لم يعد له أيّ علاقة بالشعور والإحساس فيعبّر عن عمق الوجود البشريّ وطموحاته. بالإجمال، شرعات المدارس الإسلاميّة تركّز على نجاح الفرد لكن دومًا كنجاح لخدمة الجماعة قبل أيّ أمرٍ آخر.

٢) عالم الاستهلاك :

تبيّن الدراسة أنّ التلامذة الذين أعمارهم بين الخامسة والثامنة عشر هم القطاع الذي تتوجّه إليه الإعلانات بشكل رئيسيّ لأنّ ذلك القطاع يتأثّر بالإعلانات أكثر من أيّ عمر آخر وكذلك هو من المستهلكين الكبار لشتّى المنتوجات وخاصّة الحديثة والإلكترونيّة منها. فالتلميذ عقله وفكره مأخوذ بما سوف يمتلكه ويستهلكه إمّا تحت تأثير الإعلان أو تحت تأثير التشبّه بالآخرين من رفاقه (Imitation). فَتَحت تأثير وسائل الإعلام التي تمجّد الناجحين، أصبح التلميذ يربط مصيره بما يستهلكه، بما يمتلكه ولو إلى حين، باللذّة التي تنتجها موادّ الاستهلاك بمختلف فروعه : فكيف في هذه الحال الارتفاع إلى فوق، إلى حيث الصمت، إلى حيث اللاّمحدود، إلى حيث التأمّل

والمشاهدة... ؟!؟ والسعادة أصبحت قيمة اقتصاديّة تجاريّة استهلاكيّة بدل أن تكون قيمة روحيّة لها دستورها في عظة التطويبات على الجبل !

٣) عالم السطحيّة :

لا شكّ أنّ مهمّات التربية هي الذهاب إلى عمق الإنسان، عمق الكيان، فتأخذ بمجمل هذا الكيان وقدراته وإمكانيّاته لتثمره وتنضجه. ولكن عالم اليوم ينمو نحو السطحيّة، بمعنى أنّ التربية بدل أن تكون تربية أعماق القلب والضمير والفكر، فهي تتحوّل في الغالب إلى تعليم (instruction) وإلى تربية عملانيّة (factuelle) فلا تأخذ بعين الاعتبار موضوع التنشئة على القِيَم من دون الوقوع في الوعظيّة الأخلاقيّة. الشُرعات التربويّة تقول الكثير عن القِيَم كما رأينا لكن هل التربية اليوميّة تقوم برسالتها في هذا المجال حيث مهمّتها لا القيام بالدروس الأخلاقيّة بل أن تتيح للتلميذ أن يفهم وأن يدرك وأن يختبر نفسه كيف يشتغل نظام القِيَم وبالتالي يتعلّم التمييز وهنا التربية هي بالفعل تنشئة فكريّة روحيّة. وهنا يكتسب التلميذ القدرة على التحوّل الباطني فيصير إنتاج القِيَم من عمق ضميره وقلبه وعقله معًا.

ج. بعض الأفكار حول فنّ التربية على القِيَم الروحيّة

كثيرًا ما نتحدّث عن الروحانيّة. القِيَم الروحيّة هي في صلب وعمق الروحانيّة. وظيفتها تغيير الشخص على مستوى عمقه، بحيث تتشكّل في عمق ضميره وروحه القِيَمُ الروحانيّة التي تحدّثنا عنها وذلك بواسطة تمارين نسمّيها روحيّة. وغاية الروحانيّة أنّها تعطي وجود الشخص معنًى جديدًا ذا نوعيّة عاليّة.

ليس عندي وصفة علاجيّة أو لائحة تطبيقيّة بل بعض الأفكار السريعة.

أوّلاً : من الهام أن يكتسب التلميذ التربية على القيم الروحيّة وهذه القيم بالذات في عمر مبكر ومن قبل أساتذة وهيئة تربويّة لها مكانتها وخبرتها في هذا المجال وتعيش هي أيضًا القِيَم الروحيّة وإلاّ خصوصًا اليوم وأمام العوالم المعادية تصبح المهمّة صعبة. لا بدّ من إعطاء نماذج حيَّة

من الشهود الذين عاشوا القِيَم مفضّلين الأشخاص الذين عاشوا القِيَم في قلب العالم وفي إطار الشرعات والانقلابات الفكريّة.

ثانيًا : من الأهميّة بمكان ألاّ نفصل بين الروح والجسد وبين القِيَم الروحيّة والحياة اليوميّة بماديّتها وتشعبّاتها ومتطلبّاتها. القِيَم الروحيّة تتجسّد في المادّة بل إنّها تولد من المادّة. يعني أنّ الولادة الروحيّة لا تنفصل عن كيان الإنسان بمجمله العاطفيّ والحركيّ والفكريّ والأخلاقيّ والعلميّ وإلاّ يصبح الجسد جسدًا أيّ إنّه معرّضٌ للخطيئة. أحدهم قال : "نصلّي برجلينا كما نصلّي بلساننا وبفكرنا" أيّ أنّ الإنسان بكامل كيانه هو روحيّ أيّ أنّ الروح هو الذي يقوده من خلال القِيَم الروحيّة التي اكتسبها.

ثالثًا : علّموا التلامذة إعادة قراءة حياتهم، قراءة قراراتهم، حركاتهم، علّموا التلامذة التمييز الروحي أيّ أن يميّزوا بين ما هو هامّ وضروريّ، بين ما هو خير وشرّ، بين ما هو موافق للوصايا ومتعارض معها من هنا دَوْر المرشديّة في المدارس ... علّموا التلامذة إدخال حياتهم، بما فيها من نور وما فيها من ظلمة، في إطار الصلاة اليوميّة وبالتالي تصبح صلاةً عميقة لها فاعليّتها في الحياة. ينبغي إعطاء التمييز الروحيّ حقّه انطلاقًا من حياة يسوع المسيح، من موقفه، من مهمّاته، من اختياراته ومن قراراته.

رابعًا : في مؤسّساتنا التربويّة الكثير من الأنشطة الاجتماعيّة. وهل لممارسة هذه الأنشطة علاقة بالقِيَم الروحيّة؟ في النشاط الاجتماعيّ، كما يمارس اليوم، يطلب من التلميذ أن يعطي أو أن يشارك، إلاّ أنّه لا يرى وجه الآخر ولا يتعب من أجله. عليه أن يكتشف الآخر ويحبّه أيّ أن يبني علاقة روحيّة فيعاني ويتألّم معه فيعطي للعمل الاجتماعيّ معناه المسيحيّ. في العمل الاجتماعيّ يسعى إلى خلاص الآخرين. إلى إشعارهم بأنّهم محبوبون. هناك تحدٍّ بأن يذهب التلميذ لاكتشاف الآخر المختلف دينيًّا ليحبّه.

خامسًا : أعتقد أنّنا لا نعطي الذاكرة حقّها بما يخصّ الحياة الروحيّة والتنشئة الروحيّة. استظهار المزامير ومقاطع من الإنجيل وكلمات يسوع كلّها تشكّل الذاكرة الحافظة فتُصبح البُشرى

جزءًا من الكيان ومن شخصيّة التلميذ نقوّي الذاكرة روحيًّا عندما ندفع التلامذة إلى كتابة نصوص روحيّة شخصيّة حرّة أو استنادًا إلى الكتب المقدّسة، نضعف الحياة الروحيّة عندما ندفع التلامذة إلى استظهار كليشيهات أو معلومات ينسونها بعد حين.

سادسًا : نداء إلى الإدارة المدرسيّة المسؤولة عن خلق جوّ روحيّ في المدرسة فإذا كان الجوّ ماديًّا في المدرسة، فذلك يعني أنّ الإدارة تهتمّ بنشاطات لها طابع تجاريّ، فلا تنتظر إذ ذاك نجاح التنشئة الروحيّة.

الخاتمة :

التربية على القِيَم الروحيّة ليست التعليم المسيحيّ فحسب بالرغم من العلاقة الوثيقة التي تربط التربية والتعليم المسيحيّ. ساعة التعليم المسيحيّ وحتّى بعض الأنشطة الراعويّة في المدرسة ليست المجال الوحيد لاكتساب هذه القِيَم. التربية على القِيَم فعل شراكة بين مختلف أعضاء الجماعة المدرسيّة، انطلاقًا من دَوْر رئيس أو رئيسة المدرسة حتّى دَوْر الموظّفين والأساتذة وعلى الأكيد دَوْر التلميذ نفسه، لأنّه إذا أردنا أن يكون التلميذ ضامنًا أيّ مستوعبًا القِيَم الروحيّة ومحافظًا عليها وشاهدًا لها، فعليه أن يكون الفاعل الأساسيّ في اكتساب القِيَم وأن يكون الشريك الواعي في هذه العمليّة. إذا أردنا أن تكون ساعة التعليم المسيحيّ هي فقط ساعة تكتسب فيها القِيَم الروحيّة، فمعنى أنّ المدرسة لا تقوم بدَوْرها كما يجب في هذا المجال وأنّ هناك مشكلة في رؤية المؤسّسة المدرسيّة لواقع اكتساب القِيَم الروحيّة من جانب التلميذ ولدَوْر مختلف أعضاء الجماعة التربويّة.